

# الفصل الأول

## حالة مصر قبيل الفتح الإسلامي



## تمهيد حالة مصر قبيل الفتح الإسلامي

كانت مصر قبيل الفتح الإسلامي ولاية بيزنطية ، وقد ساءت أحوالها كثيرا في ظل هذا الحكم ، حيث أن الأباطرة البيزنطيين لم يدخروا وسعا للحصول على أكبر قدر ممكن من الضرائب التي كان عبؤها يقع على كاهل المصريين دون غيرهم ، واضطربت أمورها الدينية بسبب تطرف أباطرة بيزنطة في اضطهاد المصريين لإقبالهم الشديد على اعتناق المسيحية ، كما أن الشعب المصري لم يكن له حق الاشتراك في حكم بلاده أو الجيش ، ولم تكن اللغة المصرية هي اللغة الرسمية ، وإنما كانت اللغة اليونانية هي لغة الحكومة منذ عصر البطالمة حتى الفتح الإسلامي .

ولذا كانت مصر أكثر الولايات البيزنطية استعدادا للدخول في حوزة المسلمين واعتناق الإسلام ، وذلك لأسباب عديدة منها الآتي:  
الأسباب الدينية:

اعتنق المصريون المسيحية وتحمسوا لهذا الدين الجديد لبعث شعورهم القومي وإبراز كياناتهم ، ولذا كان من الطبيعي أن تلقى هذه الديانة الجديدة العداء من أباطرة بيزنطة الوثنيين اعتبارا من حكم الإمبراطور سيفيرس (١٩٣-٢١١م) الذي شن حملة اضطهاد واسعة النطاق ضد معتنقي المسيحية سنة ٢٠٢م<sup>(١)</sup> ، وظلت المسيحية تلقى اضطهادا كثيرا حتى ولى العرش البيزنطي الإمبراطور دقلديانوس سنة ٢٨٤-٣٠٥م الذي بلغ الاضطهاد أقصاه خلال فترة حكمه ، ويدل على ذلك أن الكنيسة القبطية بدأت تقويمها المعروف بتقويم الشهداء بالسنة الأولى من حكمه أي سنة ٢٨٤م<sup>(٢)</sup> ، وذلك إشارة إلى ما عاناه الأقباط في تلك السنة من أذى.

(١) رأفت عبد الحميد: الدولة والكنيسة ، القاهرة ١٩٨٢ ، ج ٢ ص ٣٤ .

(٢) سيده كاشف: مصر في عصر الولاة ، تاريخ المصريين ، ص ١٤ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٨٨ ، ص ١٣ ، ١٤ .

ويذكر المؤرخون لهذه الفترة أنه في سنة ٣٠٠م كانت مصر بلدا وثنيا في جوهرها ، بينما أصبحت في سنة ٣٣٠م بلدا يدين معظم أهله بالمسيحية ، ولعل ذلك راجع لتحقيق المسيحية بعض الانتصارات كما أن بعض الأباطرة أوقفوا الاضطهادات ، وعلى الرغم من ذلك نشأت الخلافات المذهبية حول طبيعة السيد المسيح ﷺ وعقدت المجامع واحتدم النقاش فيها ، وبلغ النزاع بين كنيسة الإسكندرية والقسطنطينية أقصاه ، وعقد مجمع خلقدونية Chalcedon بآسيا الصغرى سنة ٤٥١م ، وأقر ما ذهب إليه كنيسة القسطنطينية بأن للمسيح طبيعتين وقرر بأن مذهب الكنيسة المصرية القائل بأن للمسيح طبيعة واحدة كفر وخروج على الدين الصحيح.

كما قرر المجمع أيضا حرمان ديسقورس بطريرك الإسكندرية من الكنيسة مما أمضى إلى اتخاذ الخلاف الديني في مصر شكلا قوميا ، ورفض ديسقورس وشعب مصر ما أقره مجمع خلقدونية ، وأطلقوا على أنفسهم اسم الأرثوذكس أي أتباع الديانة الصحيحة. وعرفوا أيضا باسم اليعاقبة نسبة إلى يعقوب البرادعي أسقف مدينة الرها في النصف الثاني من القرن السادس الميلادي ، أما أتباع الكنيسة البيزنطية فقد عرفوا بعد الفتح الإسلامي باسم الملكانيين لاعتناقهم المذهب الملكي أو الإمبراطوري الذي ينادى بالطبيعتين.

ومن هنا اتسمت العلاقات بين الجانبين بكثير من العنف والاضطهاد ، وساءت أحوال البلاد ، واضطربت الأمور الدينية فيها ، وتفجر الصراع المذهبي بينها وبين السلطة الحاكمة<sup>(١)</sup>.

(١) وهيب عطا الله جرجس: تعاليم كنيسة الإسكندرية فيما يختص بطبيعة السيد المسيح، القاهرة، ١٩٦١، ص ١٥، اسحق عبيد: الإمبراطورية الرومانية بين الدين والبربرية، مع دراسة في مدينة الله ، القاهرة ١٩٧٢م ، ص ٨٨.

وقد قابل المصريون الاضطهاد الديني بالمقاومة الإيجابية أحيانا ، ولكن الغالبية العظمى من الشعب المصري لجأت إلى المقاومة السلبية ، وذلك بالفرار من المعابد والأديرة وهجر قرأهم ومزراعهم ، مما أدى إلى انتشار الفوضى في البلاد واضطراب مرافقها الاقتصادية<sup>(١)</sup> كما سيتضح.

### الأحوال الاقتصادية:

إن أول ما يلفت نظر القارئ في حالة مصر الاقتصادية خلال القرن السابع الميلادي هو ظهور الضياع الكبيرة التي تملكها الأسر النبيلة ، ويتضح ذلك من خلال أوراق البردي العربية التي تعطينا معلومات وفيرة عن بعض الأسر التي امتلكت جهازاً إدارياً خاصاً بها ، مثل الكتبة والمحاسبين ومحصلي الضرائب ، بل كان لها جيش خاص لحماية أملاكها ، وبعض المراكب النيلية ، وكانت هذه الأسر في البهنسا والأشمونيين والإسكندرنية.

وبصفة عامة ساءت حالة مصر الزراعية وساءت حالة الفلاحين ، فقد صاروا العبيد البؤساء ٠٠٠ والملاك الصغار والسكان المساكين ، وصارت القرية تعسة ، وأصبح الفلاح يلتمس رفع المظالم عنه ، وأنهكت أنواع الضرائب كواهل المصريين في الوقت الذي أعفى فيه كبار الملاك مما أثار شكوى الفلاحين وتدمرهم مما اضطركثير منهم لوضع أنفسهم تحت حماية أمير من الأمراء وهو ما عرف بـ (نظام الحماية)<sup>(٢)</sup> ، واضطر فريق آخر إلى هجر قرأهم ومزراعهم.

ومن أمثلة الضرائب التي فرضها البيزنطيون واستعملوا القسوة في تحصيلها الآتي:

(١) سيدة كاشف: مصر في عصر الولاة، ص ٩.

(٢) محمد حمدي المناوي : مصر في ظل الإسلام من الفتح العربي إلى نهاية العصر الفاطمي ، القاهرة ١٩٧٠م ، ج ١ ص ٢

• ضريبة الرؤوس وكانت تفرض على كل سكان مصر من الذكور الذين يتراوح عمرهم بين أربع عشرة وستين عاما ، ماعدا فئات ممتازة معفاة من هذه الضريبة ، وهم الروم المقيمون في مصر، وأبناء الجند الإغريق ، وعدد من القسس ، ومواطني الإسكندرية ، واليهود.

• ضريبة سنوية كانت تفرض على جميع الحيوانات.

• ضريبة شهرية كانت تجبى من التجار.

• كان صيد السمك والطيور لا يتم إلا برخصة.

• كانت الحكومة تجبى ضريبة على البضائع المصنعة في كل مصنع قبل خروجه.

• ضريبة على من لا يقيم بأعمال السخرة فى حفر الترع وتطهيرها.

• ضريبة على أثاث المنازل.

• ضريبة على الحمامات العامة.

• ضريبة التاج ، وتدفع عند تولية إمبراطور جديد.

• ضريبة تدفع عند إقامة تمثال أو بناء معبد للإمبراطور.

• ضريبة على التجارة المارة في النيل.

• ضريبة على الأسواق.

هذه أنواع متعددة من الضرائب التي كانت تفرضها الحكومة البيزنطية على البلاد ، وكانت تقع على كاهل صغار الملاك والفلاحين ، مما جعل طبقة صغار الملاك تختفي تدريجيا.

والأسوأ من ذلك أن الأموال المحصلة من هذه الضرائب كانت لا تصرف في تحسين مرافق الدولة ، بل أخذت طريقها إلى خزانة الدولة البيزنطية تلك الدولة التي اعتبرت مصر حقلا ومخزنا للجلال يزودونها باحتياجاتهم.

كما اعتبرت مصر مصدرا لجباية الضرائب والحصول على حاجات الإمبراطورية من الأموال ، مما أدى إلى إهمال شئون الزراعة وتأخر الصناعة وانحطاط التجارة وفساد أحوال مصر الاقتصادية بوجه عام .

### الأحوال الإدارية والعسكرية:

عمل التقسيم الإداري لمصر خلال تلك الفترة على إضعاف سلطة الدولة بها فقد كانت مصر مقسمة إلى خمسة أقسام إدارية كبرى هي:

- **الاسكندرية:** كانت أهم هذه الأقسام ، باعتبارها عاصمة مصر في العصر البيزنطي ، ومقر الحاكم البيزنطي العام.
- **شرق الدلتا:** وتشمل المنطقة الواقعة شرق فرع دمياط حتى حدود مصر مع الشام.
- **غرب الدلتا:** وكانت تسمى بليبيا.
- **مصر الوسطى:** ومنها إقليم الفيوم.
- **مصر العليا:** وكانت تمتد حتى آخر حدود مصر الجنوبية<sup>(١)</sup>

ولم تكن هناك وحدة إدارية تربط بين كل هذه الأقسام ، إذ كانت سلطة الحاكم البيزنطي بالإسكندرية ضعيفة وكان يحكم كل إقليم أمير يعرف في المصطلح البيزنطي باسم الدوقى<sup>(٢)</sup> ، بل ترتب على هذا التقسيم الإداري لمصر تحت حكم الدولة البيزنطية أن أصبح لكل من هذه الأقسام حاكم يتولى إدارة شئون الإقليم ، ويكاد يكون مستقلا بشئون إدارته وأصبح لكل إقليم جيشه الخاص ، وهذا يعنى أن جيش مصر كان جيشا إقليميا اقتصرت مهمته على الدفاع عن الجهات التي يربط فيها ، وكان بعضهم من المصريين

(١) سيدة كاشف: مصر فى عصر الولاة ص١٧.

(٢) بل: مصر من الإسكندر الأكبر حتى الفتح العربي ، ترجمة عبد اللطيف أحمد على، محمد عواد، القاهرة ١٩٤٥م، ص٢٣٩.

المجندين بعد أن قامت الدولة البيزنطية بتغيير سياستها التي اتبعتها في أول الأمر وهي عدم تجنيد المصريين في الجيش<sup>(١)</sup>.

ولم يكن لهذا الجيش من الصفات العسكرية إلا حظ ضئيل وكانت مهمة أفراد الجيش الرئيسية هي مساعدة الموظفين في أعمالهم والقضاء على قطاع الطرق، والاشتراك في جباية الضرائب ، وإخماد الثورات الدينية<sup>(٢)</sup>، ولذا ضعفت الناحية الحربية بسبب عدم الوحدة والانسجام حيث كان يخضع لخمسة قواد في مصر كلهم على قدم المساواة. ولذلك عندما جاء العرب فاتحين لمصر لم يقاتلوا جيشا موحدًا بل كان لكل إقليم جيش ينتظر ظهور العرب في إقليمهم ليدافعوا عنه<sup>(٣)</sup>.

### الأحوال الاجتماعية:

أصاب الخلل أيضا البناء الاجتماعي ، حيث أُعتبر المصريون الطبقة السفلي من طبقات المجتمع ، وترتب على ذلك قيامهم بأشدّ الاتزّامات قسوة وإجحافا ، وحرمانهم من حقوقهم الاجتماعية ، بجانب معاملتهم معاملة سيئة للغاية. هكذا كان حال المصريين الضعفاء ، بينما كان الحال على النقيض تماما بالنسبة للجاليات الأخرى مثل الروم واليونانيين واليهود وخاصة الذين كانوا يقطنون مدينة الإسكندرية ، حيث كانت بمثابة مدينة يونانية ، وكان سكان البلاد من المصريين يعدون التوجه إليها بمثابة رحيلًا عن مصر وخرجًا منها ، إذ اشتهرت الإسكندرية بالبذخ والثراء خلال تلك الفترة<sup>(٤)</sup> .

(١) أحمد عبد الرازق: تاريخ وآثار مصر الإسلامية ، القاهرة ١٩٩٣ ، ص ١٧ .

(٢) سيدة كاشف: مصر في عصر الولاة ، ص ١٨ ..

(٣) محمد حمدي المناوي: مصر في ظل الإسلام ، ص ٤ .

4 - Devonshire L'Egypte musulmane et les fondateurs des ses Mony ments le Caire, 1982, P.18.

وكانت على العكس من بقية أجزء مصر التي كانت بمثابة أقاليم زراعية تتقاسم فيها أسرقوية ، على حين أصبح الفلاح عبدا تحت حماية الملاك الأقوياء الذين ابتزوا أموال البلاد ، دون رعاية شئونها أو إصلاح أمورهما ، ولذا انقطعت علاقة العطف على الشعب<sup>(١)</sup> .

وهكذا صار المصريون غرباء في بلادهم يقدمون ثراتها للمستعمرين ، وتعاونت هذه الأسباب جميعها على إضعاف مصر ، وبدت مصر متهالكة وضعيفة بعد أن اختلت أحوالها الدينية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية.

وهيأت هذه الأسباب البلاد لتقبل الفتح العربي الإسلامي لمصر وانتقال السلطة من أيدي البيزنطيين إلى أيدي العرب .

### دوافع الفتح الإسلامي لمصر :

نجحت الفتوحات الإسلامية في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه في إنزال ضربات متوالية للإمبراطوريتين الفارسية والرومانية ، حيث انتصر المسلمون على الروم في موقعة أجنادين سنة ١٣ هـ / ٦٣٤ م<sup>(٢)</sup> ، ثم أذعنتم لهم دمشق وحمص سنة ١٥ هـ / ٦٣٦ م بعد أن تولى الخلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه<sup>(٣)</sup> ، وتعرض جيش بيزنطة لهزيمة ساحقة في موقعة اليرموك سنة ١٥ هـ / ٦٣٦ م<sup>(٤)</sup> ، وأزّل العرب ملك الأكاسرة في فارس عقب انتصارهم في موقعة القادسية أواخر سنة ١٦ هـ / ٦٣٧ م ، واستولوا على عاصمتهم المدائن ، وتمكن المسلمون من الاستيلاء على عكا وصيدا وبيروت وصور واللاذقية ١٧ هـ / ٦٣٨ م<sup>(٥)</sup> ، وخضعت إنطاكية وبيت المقدس سنة ١٨ هـ / ٦٣٨ م ثم ماردين وميفارقين والرهما من أرض الجزيرة

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ، ص ٥٣ ، الكندي : كتاب الولاة ، ص ٦٠٧ .

(٢) اليعقوبى : تاريخه ، ص ١٣٤ .

(٣) اليعقوبى : تاريخه ، ص ١٤١ .

(٤) البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ١٣٨ .

(٥) اليعقوبى : تاريخه ، ص ١٤٧ ، أبو زيد شلبى : الخلفاء الراشدون ، ص ١٤١ .

وأرض العراق سنة ١٩هـ/٦٤٠م ، كما سقطت قيصرية سنة ٢٠هـ/٦٤٠م<sup>(١)</sup> ، وبذلك لم يبق لبيزنطة سوى أملاكها في مصر وشمال إفريقية وجاء دور مصر بعد ذلك.

وعند فتح بيت المقدس سنة ١٧هـ/٦٣٨م ففتح الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه في موضوع فتح مصر أثناء وجوده في الجابية ، وكان عمرو ابن العاص أكثر القادة تمسسا وأشدهم حرصا لتنفيذ هذا الموضوع لما كان يعرفه عن رخاء مصر وكثرة ثروتها ، كما أنه أدرك ضعف مصر في ذلك الوقت ، وضرورة فتحها لتأمين سلامة العرب في بلاد الشام وحرمان البيزنطيين من اتخاذها قاعدة ومركز للهجوم من جديد على بلاد الشام<sup>(٢)</sup> .

بجانب أن العرب كانوا على علم تام بثراء مصر وخصبها حيث أتى إليها الكثير منهم للتجارة في أيام الجاهلية مثل عمرو بن العاص ، وعثمان بن عفان<sup>(٣)</sup> والمغيرة بن شعبة ، هذا بجانب الكثير من الأعراب الذين كانوا يفدون إلى الصعيد عن طريق البحر الأحمر وديان الصحراء الشرقية ، بدليل أن بعض المؤرخين ذكر أن مدينة قفط تعتبر نصف عربية<sup>(٤)</sup> .

فكر الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه كثيرا في مشروع فتح مصر وتريث في إجابة عمرو بن العاص ، وربما كان ذلك لضخامة هذا المشروع ، ويذكر أن عمرو بن العاص سار لفتح مصر وكان الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه لا يزال مترددا ، واتفق معه على أنه سوف يرسل له كتابا وقال له: "فإن أدركك كتابي وأمرتك فيه بالانصراف عن مصر قبل أن تدخلها أو شيئا من أرضها ، فانصرف ، وإن كنت دخلتها قبل أن يأتيك كتابي ، فامض لوجهك واستعن بالله واستنصره" ، ولم يتسلم عمرو بن العاص الكتاب من رسول الخليفة إلا بعد أن دخل أرض مصر ليمض قدما في مشروعه حتى لو كان الخليفة قد أمره بالانصراف عنها<sup>(٥)</sup> .

(١) البلاذري : فتوح البلدان ص ١٤٥ .

(٢) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ، ص ٥٣ ، الكندي : كتاب الولاة ، ص ٦٠٧ .

(٣) السيوطي : حسن ج ١ ص ٩٢ .

(٤) أحمد عبد الرازق : تاريخ وأثار مصر الإسلامية ص ٢٢ .

(٥) الكندي : ولاة مصر ، ص ٣١ .

## خطبة فتح مصر:

خرج عمرو بن العاص من قيسارية بفلسطين على رأس جيش صغير يتراوح بين ثلاثة آلاف وخمسمائة إلى أربعة آلاف مقاتل<sup>(١)</sup>، وكان ذلك في أواخر سنة ١٨هـ/٦٣٩م متخذاً الطريق الذي سلكه معظم غزوة مصر، وهو طريق الصحراء الشرقية على ساحل البحر الأبيض المتوسط متجنباً في نفس الوقت فرع النيل، حتى وصل العريش التي استولى عليها في ذي الحجة سنة ١٨هـ/ديسمبر ٦٣٩م وبها احتفل بعيد الأضحى<sup>(٢)</sup>، ومنها سار متجهاً نحو الفرما التي استطاع الاستيلاء عليها بعد حصار لم يستمر أكثر من شهر واحد، ثم قرر بعد ذلك هدم أسوارها وحصونها حتى لا يضطر لترك حامية فيها مع قلة عدد الجند وصغر جيشه، وكان ذلك أوائل سنة ١٩هـ/٦٤٠م.

ثم واصل سيره حتى وصل مدينة بلبيس في النصف الأول من محرم سنة ١٩هـ/يناير ٦٤٠م، فحاصرها نحو شهر آخر حتى تمكن من هزيمة حاميتها من الروم والاستيلاء عليها بعد قتال شديد خسر فيه العرب عدد من جنودهم، كما خسر البيزنطيون ألف قتيل وثلاثة آلاف أسير<sup>(٣)</sup>.

وبذلك تقدم عمرو على رأس جيشه بخطى ثابتة نحو نهر النيل بعد أن انفتح الطريق أمامه على مصراعيه إلى رأس الدلتا حتى وصل أم دنين - وهي قرية كانت تقع على النيل شمال حصن بابليون<sup>(٤)</sup>، وهناك نشب قتال شديد بين العرب والروم أرغمهم عمرو على التحصن بحصن بابليون - وحصن بابليون الذي بناه الإمبراطور تراجان (٩٨-١١٧م)، فهو يعرف في المصادر العربية باسم حصن الشمع لأنه كان يوقد عليه الشمع في بداية كل شهر، كما عرف بحصن باب اليون<sup>(٥)</sup>، وأدرك القائد الروماني تيودور وكذلك المقوقس خطورة

(١) ابن عبد الحكم: فتوح، ص ٥١، البلاذري: فتوح البلدان، ص ٢١٢.

(٢) محمد حمدي المناوي: مصر في ظل الإسلام ص ١٠٠..

(٣) بئر: فتح العرب لمصر، ص ١٥٩..

(٤) المقرئزي: الخطط، ج ١ ص ٢٨٩.

الموقف ، حيث سارع المقوقس بحفر خندق حول هذا الحصن وعمل على تعبئة الجيوش البيزنطية به لمواجهة العرب ، حيث أن بابليون من أعظم مراكز مصر ، وذلك لموقعها على رأس الدلتا وكونها على الطريق الموصل إلى مدينة الإسكندرية عاصمة مصر في ذلك الوقت ، وأحس عمرى بدوره بعظم المقاومة في هذه البقعة فأرسل إلى الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه يستنجد به ، ثم اتجه نحو الفيوم انتظارا لوصول المدد<sup>(١)</sup> ، حيث قضى في غزاه بضعة أسابيع قدم خلالها المدد الذي بلغت عدته أربعة آلاف رجل<sup>(٢)</sup> على رأسهم الزبير بن العوام ، والمقداد بن عمرو ، وعبادة بن الصامت ، ومسلمة بن مخلد .

ويذكر البعض خارجة بن حدافة بدلا من مسلمة بن مخلد ، وقد وصفهم الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه بأن الواحد منهم يعادل ألفا<sup>(٣)</sup> .

ويعد وصول الإمدادات ارتفعت الروح المعنوية للعرب وتقويت عزائمهم وبدأ عمرى يعد العدة للمعركة الفاصلة مع الروم في مصر .

تأكد عمرى أن أمر الروم سيطول خلف أسوار الحصن ، ولذا عمل علي جذبهم خارج الحصن ليقاتلوه علي أرض مفتوحة ، ولما خرجت القوات البيزنطية سار عمرى مع معظم جيشه للقائهم بعد أن قسم جيشه إلي مجموعة من الفرق ونصب الكمائن خلف تلال رملية ، حيث جعل كل فرقة تهاجم الحصن وتظاهر بالانهزم فيتتبعها الروم ، وهنا تبرز الفرق الأخرى من مكنها فتهاجم الروم وتنقض عليهم ، فتحصن الكثير منهم بالحصن مرة أخرى<sup>(٤)</sup> ، وهامت جموع كثيرة منهم في مصر السفلي ، وهكذا لحقت الهزيمة بالروم فيما عرف بموقعة عين شمس وهي التي حدثت في رجب ١٩هـ / يوليو ٦٤٠م<sup>(٥)</sup> ، وهذا ما جعل العرب يضربون الحصار حول الحصن ، واستمر هذا الحصار بضعة أشهر ضعفت خلالها

(١) بئر: فتح العرب لمصر ، ص ١٦٢ .

(٢) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ، ص ٥٦ ، المقرئى: الخطط ، ج ١ ص ٢٨٩ .

(٣) ابن عبد الحكم: فتوح مصر ، ص ٥٦ .

(٤) المقرئى: الخطط ، ج ١ ص ٢٨٩ .

(٥) البلاذرى: فتوح البلدان ، ص ٢١٣ .

الروح المعنوية لقوات الروم ولم يعد أمامهم سوي مقاومة العرب علي فك الحصار وانهز المقوقس (قيرس) ارتفاع النيل وصعوبة اقتحام المسلمين للحصن وانتقل إلي جزيرة الروضة ودخل في مفاوضات سرية مع عمرئ مستهدفا إنقاذ موقف البيزنطيين المتدهور، وعقد صلحا مع العرب مقابل أن يبذل لهم مبلغا من المال<sup>(١)</sup> ولكن عمرئ رفض هذا العرض وخيرهم بين أشياء ثلاثة. الدخول في الإسلام. أو دفع الجزية. أو القتال، وبالرغم من هذا عاد قيرس للمفاوضة مرة أخرى مما جعل عمرئ يرسل إليه وفدا علي رأسه عبادة بن الصامت، وفي صدي المفاوضات عرض قيرس أن يبذل لكل فرد من القوات العربية دينارين ولعمرئ ثلاث مائة، ويرسل إلي خليفتهم بألف دينار مقابل انسحاب العرب وعودتهم لبلادهم<sup>(٢)</sup>، ورفض الوفد العربي هذا العرض بشدة كما رفض كبار الروم داخل الحصن الإذعان لمطالب المسلمين واستؤنف القتال من جديد بين الفريقين حتى سلم الروم في النهاية<sup>(٣)</sup>، ويقال أن العرب فتحوا الحصن عنوة دون أن تحدث مفاوضات وذلك بفضل بسالة الزبير بن العوام<sup>(٤)</sup>، الذي تسور الحصن علي سلم وعتلي سور، وكبر فكبر المسلمون وصعدوا خلفه السور لينقضوا علي من فيه، وخيل للبيزنطيين داخل الحصن أن المسلمين اقتحموا الحصن عليهم ودخلوه، ومن ثم خاف قائد الحامية بالحصن علي أروأهم وطلب من عمرئ الصلح، وعقدت بين الطرفين معاهدة عرفت باسم معاهدة بابلين الأولى سنة ١٩هـ / ٦٤٠م<sup>(٥)</sup> وأهم شروط المعاهدة الآتي :

١. أن يخرج رجال الحامية من الحصن في ثلاثة أيام.

٢. أن يرحلوا عن طريق النهر ويحملوا معهم ما يلزمهم من المؤن ما يكفيهم لبضعة

أيام وكانت وجهتهم نحو الإسكندرية

(١) ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ٦١.

(٢) ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ٦١.

(٣) المقرئزي: الخطط، ج ١، ص ٢٩٠.

(٤) البلاذري: فتوح البلدان، ص ٢١٣.

(٥) سيدة كاشف: مصر في فجر الإسلام، ص ١٢.

٣. أن يسلموا الحصن وما فيه من أسلحة وآلات الحرب للعرب .

٤. أن يدفع أهل مدينة مصر المجاورة للحصن الجزية<sup>(١)</sup> .

وهكذا سقط حصن بابليون في يد العرب وكانت بابليون من أهم المراكز المصرية إن لم تكن أهمها جميعا نظرا لموقعها علي رأس الدلتا ، ولكونها علي الطريق الموصل إلي الإسكندرية عاصمة البلاد في ذلك الوقت.

والحصن منيع كما يقع علي النيل ، وكان سمك جدرانها ثمانية عشر قدما ويتخلل أسواره عدة أبواب ، وأمامه جزيرة الروضة ذات الحصون القوية التي تعد مركز إمدادات للحصن ، والحصن بوجه عام كان غاية في القوة والمنعة.

### إتمام الفتح العربي الإسلامي لمصر:

بعد إتمام عمرو بن العاص السيطرة علي حصن بابليون والمناطق المجاورة له كان شديد الرغبة في السير بجنوده نحو الإسكندرية ، حيث كان فتحها مهما لدي المسلمين كفتح بيت المقدس<sup>(٢)</sup> ، وذلك لأن إتمام الفتح العربي الإسلامي لمصر كان منوطا بفتح الإسكندرية عاصمة مصر في ذلك الوقت.

ويؤكد ذلك الكندي بقوله: " لما حاز المسلمون الحصن بما فيه أجمع عمرو علي السير إلي الإسكندرية ، فسار إليها في ربيع أول سنة ٢٠هـ / ٦٤١م"<sup>(٣)</sup>.

وكان عمرو قد كتب إلي الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ يستأذنه في الزحف إليها ، فأذن له بذلك<sup>(٤)</sup> ، وخرج مع عمرو جماعة من القبط يقدمون له العون من خلال إرشاده إلي الطرق المؤدية إلي المدن والقرى ، وتقديم المؤن لهم والأعلاف لخيولهم<sup>(٥)</sup>.

(١) السيوطي: حسن المحاضرة ، ج١ ، ص ٩٥

(٢) الكندي: ولاية مصر ص ٣٣ ، عبد الرحمن الرافعي: مصر في العصور الوسطى منذ الفتح العربي حتى الغزو العثماني ، ط دار النهضة العربية ١٩٧٠م ، ص ٢٧.

(٣) الكندي: ولاية مصر ، ص ٣٣.

(٤) البلاذري: فتوح البلدان ، ج١ ص ٢٦٠ ، سالم: تاريخ الإسكندرية ، ص ٥١.

(٥) ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها ، مكتبة مدبولي القاهرة ، ص ٧٣ ، النويري: نهاية الأرب ، ج١٩ ، ص ٣٢.

وبدأ العرب سيرهم على الضفة الغربية لفرع رشيد من ناحية الصحراء الغربية، حيث يعد هذا الطريق مجالا أوسع لخيالهم ومناسبا لتقدمهم نحو الإسكندرية<sup>(١)</sup>، وكانت قرية نقيوس<sup>(٢)</sup> هي أولى القرى التي قصدها عمرى أثناء سيره، للإسكندرية، فهاجمها وتمكن من الاستيلاء على حصونها بعد أن فر منها العديد من جند الروم مع قائدهم "دومنتيانوس" الذي كان متوليا شئون الدفاع عنه<sup>(٣)</sup>.

وواصل عمرى سيره عبر غرب الدلتا متوجها صوب الإسكندرية، فلم يلق أحدا من جند الروم حتى بلغ "ترنوط"<sup>(٤)</sup>، فلقي بها حامية رومانية جرت بينهم وبينه مناوشات كانت الغلبة بعدها للمسلمين<sup>(٥)</sup>، وبعد سيطرة العرب على ترنوط أرسل عمرى كتيبة من جنوده يقودها شريك بن سمي المرادي لتتبع أثر الروم الفارين من نقيوس وترنوط ولحق بهم عند كوم شريك<sup>(٦)</sup>، وهناك دارت بينهما معركة ضارية انتهت بهزيمة الروم وفرارهم<sup>(٧)</sup>.

وأثناء مواصلة عمرى سيره نحو الإسكندرية متتبعا الطريق إلى الشمال الغربي من ناحية الصحراء الغربية حتى الدلنجات، قدم إليه أهالي رشيد ومحلة دميرة ودمنهور وأبيار - مدن وقرى في غرب الدلتا - طالبين الصلح معه والخضوع لحكم العرب دون قتال<sup>(٨)</sup>. ثم واجه عمرى جموعا من الروم الفارين من المناطق التي استولى عليها العرب فاعترضوا سبيله مرة ثانية عند مدينة سلطيس<sup>(٩)</sup>، حيث نشبت بها معركة انتهت بهزيمة الروم<sup>(١٠)</sup> بعد أن تركوا المدينة فارين نحو الشمال، حيث استقروا عند مدينة الكريون<sup>(١١)</sup>،

(١) بئر: فتح العرب لمصر، ص ٢٤٩.

(٢) نقيوس: هي قرية بين الإسكندرية ورشيد، تقع على الشاطئ الشرقي لفرع رشيد.

(٣) بئر: فتح العرب لمصر، ص ٢٤٩.

(٤) ترنوط: هي قرية من أعمال محافظة البحيرة الحالية تقع على الجانب الغربي لفرع رشيد.

(٥) النويرى: نهاية الأرب، ج ١٩ ص ٣٠٢، المقرئى: الخطط، ج ١ ص ١٦٣.

(٦) كوم شريك: هي قرية ما زالت موجودة حتى اليوم بمرکز كوم حمادة بمحافظة البحيرة على بعد ستة عشر ميلا.

(٧) المقرئى: الخطط، ج ١ ص ١٦٣.

(٨) الواقدي: فتوح الشام الطبعة الثانية، المطبعة الأزهرية بالقاهرة ١٩٣٤، ج ٢ ص ٥٤.

(٩) هي مدينة تابعة لمركز دمنهور حاليا، انظر ياقوت الحموى: معجم البلدان.

(١٠) بئر: فتح العرب لمصر، ص ٢٧٤، السيد عبد العزيز سالم: تاريخ الدولة العربية، ص ٢١٨.

(١١) الكريون: هي مدينة كبيرة، من أعمال محافظة البحيرة الحالية تقع على خليج الإسكندرية.

وكان بها القائد الروماني "تيودور" الذي ازدادت قوته ، وقويت شوكته بعد أن أتته الجموع الهاربة من المدن والقرى المجاورة بعد استيلاء العرب عليها مثل نقيوس ، وبلهيب ، والخيس ، وترنوط ، وسلطيس ، وغيرها<sup>(١)</sup>

وبالكرينون عول الروم على الوقوف أمام العرب وقفتهم الأخيرة قبل أن يتقهقروا إلى الإسكندرية ، وكان على مقدمة الجيش العربي عبد الله بن عمرو بن العاص ، وحامل لوائه وردان مولى عمرو ، وبعد معركة عنيفة تكبد فيها الجانبان خسائر جسيمة تمكن العرب من السيطرة على الكريون والاستيلاء على حصنها المنيع<sup>(٢)</sup> ، وفر العديد من الروم إلى الإسكندرية وبقي العرب بالمدينة عدة أيام للاستراحة من عناء الحرب المتتالية ، ثم تقدم عمرو بالجيش العربي صوب الإسكندرية التي أشرف على أسوارها بعد أيام قلائل<sup>(٣)</sup> ، وحمل على أسوارها ولكنه ارتد عقب أول هجوم ، حيث أدرك استحالة السيطرة عليها لمناعتها وقوة حاميتها من الروم وغيرها ، والتي كان عددها يصل للألاف<sup>(٤)</sup>

واضطر العرب للوقوف على مشارف المدينة لقطع الاتصال بينها وبين المدن والقرى المحيطة بها ومنع الإمدادات من الوصول إليها ، وعسكروا في موضع ما بين الحلوة وقصر فارس . وهو موقع بشرق الإسكندرية ، وكان معهم بعض القبط يمدونهم بما يحتاجون إليه من المُن والأعلاف ، واستمرروا بهذا الموضع فترة كان القتال فيها عبارة عن تراشق بالسهم من بعيد أو مبارزة فردية بالسيف كانت غالبا ما تنتهي بانهزم الروم<sup>(٥)</sup> .

وبالإضافة لمحاولات عمرو فتح الإسكندرية فإنه وجه بعض سرايا إخضاع مدن وقرى مصر السفلى ، وبعد السيطرة على العديد منها عاد ثانية وشدد الحصار على الإسكندرية ، واستمر في ذلك عدة أشهر<sup>(٦)</sup> ، وبعدها تم له فتحها بعد معركة عنيفة<sup>(٧)</sup> ،

(١) البلاذري: فتوح البلدان ، ص ٢٦ النويري: نهاية الأرب ، ج ١٩ ، ص ٢٠٣ .

(٢) الكندي: ولاة مصر ص ٣٣ .

(٣) بتلر: فتح العرب لمصر ، ص ٢٧٥ ، السيد عبد العزيز سالم: تاريخ الدولة العربية ، ٢١٩ .

(٤) سالم: تاريخ الإسكندرية ، ص ٥١ ، أحمد عبد الرازق: تاريخ وأثار مصر الإسلامية ، ص ٢٦ .

(٥) ابن عبد الحكم: فتوح مصر ص ٧٥-٧٧ ، النويري: نهاية الأرب ، ج ١٩ ، ص ٢٠٣ .

(٦) البلاذري: فتوح البلدان ، ص ٢٥٩ ، الكندي: ولاة مصر ، ص ٣٣ .

(٧) حسين مؤنس: تاريخ الإسلام ، ص ١٣٣ .

واستخلف عليها عبد الله بن حذافة وترك معه حامية من المسلمين بلغ عددهم ألف رجل<sup>(١)</sup>، ثم مضى ومن بقى معه من جند العرب في طلب من هرب من الروم في البر، حيث كان البعض منهم قد فر إلى البحر والبعض قد فر إلى البر، وذلك أثناء استيلائه على الإسكندرية، فعاد من كان فر منهم في البحر إلى الإسكندرية ثانية وقتلوا من كان فيها من العرب ولم ينجح إلا من هرب، فلما علم بذلك عمر، عاد مسرعا إلى الإسكندرية وحمل عليها ففتحها ثانية<sup>(٢)</sup>، ودخلها العرب فيما بين عامي ٢٠-٢١هـ/٦٤٢م<sup>(٣)</sup>.

وأرسل عمر، بشارته بالفتح للخليفة عمر، بن الخطاب رضي الله عنه مع أحد رجال القبائل العربية في غرب الدلتا وهو معاوية بن حديج الكندي<sup>(٤)</sup>، وقد اختلفت الآراء حول أسلوب فتح العرب للإسكندرية، فهناك من المؤرخين من يرى أنها فتحت صلحا<sup>(٥)</sup>، وهناك فريق آخر يرى أنها فتحت عنوة<sup>(٦)</sup>.

إلا أن الرأي السائد أنها فتحت صلحا، حيث شاءت الأقدار أن يموت هرقل إمبراطور الدولة البيزنطية سنة ٢٠هـ/٦٤١م بعد أن عزم على الخروج لمباشرة الحرب في الإسكندرية بنفسه، مما أضعف في شوكة الروم، لذا اضطرت الإمبراطورة ماريتم الوصية على العرش للصلح مع العرب المسلمين<sup>(٧)</sup>، وطلب قيرس الصلح من عمر، بن العاص، ولم يكن أمام عمر، سوى الترحيب بهذا العرض، وعقدت معاهدة بابليون الثانية<sup>(٨)</sup> تمييزا لها عن معاهدة بابليون الأولى، وسميت أيضا بمعاهدة الإسكندرية لأنها كانت خاصة بأهل الإسكندرية، وكان عقد هذه المعاهدة يعنى سقوط الإسكندرية والتسليم بنفوذ العرب في

(١) البلاذري: فتوح البلدان، ص ٢٢٢.

(٢) الواقدي: فتوح الشام الطبعة الثانية، المطبعة الأزهرية بالقاهرة ١٩٣٤، ج ٢، ص ٥٤.

(٣) ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ٨٠، المقرئ: الخطط، ج ١، ص ١٦٥.

(٤) البلاذري: فتوح البلدان ص ٢٥٩، أبو المحاسن: النجوم، ج ١، ص ٧٥.

(٥) ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ٧٢، الطبري: الرسل، ج ٤، ص ١٠٥.

(٦) الكندي: ولاية مصر ص ٣٣، ابن خلدون: تاريخه، ج ٢، ص ١١٥، أبو المحاسن: النجوم، ج ١، ص ٧٥.

(٧) سيدة كاشف: مصر في فجر الإسلام، ص ١٣.

(٨) أحمد عبد الرازق: تاريخ وأثار مصر الإسلامية، ص ٢٧.

مصر، فعقب سقوط الإسكندرية امتد نفوذ العرب تدريجياً إلى سائر الأقاليم في مصر<sup>(١)</sup>، وقد أمدنا يوحنا النقيوسي بشرط هذا الصلح الثمانية وهي :

١. أن تعقد هدنة بين الطرفين مدتها أحد عشر شهراً.
٢. أن يبقى العرب في مواضعهم ولا يسعوا لقتال الإسكندرية، وأن يكف الروم عن القتال.
٣. أن يتم جلاء حامية الروم من الإسكندرية بأموالهم ومتاعهم عن طريق البحر أما الذي يرحل عن طريق البر فعليه أن يدفع كل شهر جزءاً معلوماً ما بقى في أرض مصر.
٤. ألا يسعى الروم إلى العودة إلى مصر ومحاولة استردادها.
٥. أن يدفع الجزية كل من دخل في هذا العقد.
٦. ألا يستولي المسلمون على كنائس المسيحيين أو يتدخلوا في أمورهم الدينية.
٧. أن يسمح لليهود بالإقامة في الأسكندرية.
٨. أن يقدم اليهود للعرب ١٥٠ جندياً، و٥٠ مدنياً كرهائن لتنفيذ شروط هذا الصلح<sup>(٢)</sup>.

ويفتح الإسكندرية أتم العرب السيطرة على منطقة غرب الدلتا، وكذلك إتمام الفتح العربي الإسلامي لمصر، حيث استقر عمرو بن العاص بعد ذلك بمقره الدائم بمدينة الفسطاط التي اختطها العرب واتخذوها عاصمة لمصر يدير منها الوالي عمرو بن العاص حكم البلاد.

(١) سيدة كاشف: مصر في فجر الإسلام، ص ١٤.

(٢) يوحنا النقيوسي: تاريخ مصر، ص ٢١٢، ٢١١.